

ميمية الشاعر يوسف زكريا في مدح الدكتور محمد صالح جمال: دراسة أدبية تحليلية

إعداد:

الدكتور محمد سليمان برايا

محاضر بقسم اللغة العربية كلية قاسم إبراهيم للتربية والتعليم ميدغري

وصالح محمد كبير

محاضر بقسم الدراسات التأهيلية بقرية اللغة العربية إنغالا

ومصطفى إبراهيم محمد

محاضر بقسم الدراسات العليا بكلية محمد غوني للشريعة والقانون والدراسات الإسلامية

ملخص البحث:

لقد أسهم الشعراء البرناويون مساهمة فعالة في قرض الشعر العربي النيجيري بشتى أغراضه المعروفة، وتكمن مساهمتهم في إنتاجاتهم الشعرية التي تناولت أغراضاً عديدة - من مدح، وثناء، ونصح، وإرشاد وزهد، وغير ذلك. فهذه المقالة المتواضعة تحاول تسليط الضوء على إنتاج واحد من هؤلاء الشعراء البرناويين المعاصرين. يحاول الباحثون أن يدرسوا حياة الشاعر يوسف زكريا عبد الله المعروف بـ (قيس) ونموذجاً من شعره في المدح، وذلك لرفع الستار عن كنزه وإنتاجاته وإبرازها إلي حيز الوجود، حتى يسهل للقارئ فهمها. وتتضمن الدراسة قصيدة في فن المدح، حيث تقوم الدراسة بالعرض والتحليل للقصيدة ومضامينها وألفاظها وتركيبها والأوجه البلاغية الواردة في النصوص.

الكلمات المفتاحية: ميمية قيس مدح أدبية

مقدمة:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، سيدنا محمد سيد الأولين والآخرين، وعلى آله الطيبين الطاهرين. وبعد:

فإن الشاعر يوسف زكريا عبد الله يعتبر من أعيان فحول شعراء برنو، بل ومن أشهر الشعراء المعاصرين الذين ساهموا ومازالوا يساهمون في مجال إنتاج الشعر العربي في نيجيريا عامة وبرنو خاصة. إن لإنتاجات الشاعر يوسف عبد الله الشعرية دوراً كبيراً في نشر الثقافة العربية وتطورها في منطقة كانم-برنو، وذلك لأن الشاعر قرض الشعر بشق أغراضه، وبذلك ساهم بإنتاجه الشعري وألف آثاراً قيمة لينتفع بها دارسو اللغة العربية والمهتمون بأمرها. وهذه المقالة تختص بدراسة إنتاجات يوسف زكريا الشعرية كشاعر مع التركيز على قصيدته الميمية في مدح الدكتور محمد صالح جمال. وتشتمل المقالة على النقاط التالية:

- نبذة عن الشاعر
- عرض ودراسة للقصيدة
- الخاتمة
- قائمة الهوامش والمراجع.

نبذة عن الشاعر:

ولد يوسف بن زكريا بن عبد الله المعروف بـ "قيس" في اليوم ١ من شهر أكتوبر ١٩٩٣ م، في أسرة متواضعة من قبيلة Tera (التي تسكن في ولاية غومبي وجنوب ولاية برنو)، وكان مولده في بلدة بيو (Biu) حكومة بيو المحلية ولاية برنو.

نشأ يوسف ببلدة بيو وترعرع فيها وتلقى بها مبادئ دراساته، حيث قرأ القرآن على يد أمه (سلمة) وأخيه (عبد الله)؛ ثم التحق بمدرسة تحفيظ القرآن بعد أن قرأ أجزاء من القرآن بين عائلته، وتابع تعلمه حتى حفظ القرآن في سن الرابعة عشر على أيدي أساتذته في مدرسة تحفيظ القرآن - بيو.

درس الابتدائية في مدرسة ملجأ السنة الإسلامية ومنها انتقل إلى المدرسة الثانوية للدراسات الإسلامية العليا، وفيها لقب بـ(قيس) لحفظه الكثير من أشعار قيس بن الملوح (مجنون ليلى

العامة)، وقد كان قيس منذ طفولته مولعا بحب الشعر والنشيد ويحفظ الكم الهائل منها ويكثر من سماع الأغاني الأمريكية وخصوصا أغاني مايكل جاكسون.

وفي جانب العلوم الأجنبية فقد درس في مدرسة (دعجا) الابتدائية ثم في مدرسة العلوم الثانوية - بيو. التحق بجامعة ميدوغري عام ٢٠١٢ بعد إنهائه الدراسة الثانوية عام ٢٠١٠م، ليدرس في الجامعة اللغة العربية التي لطالما كان يحلم أن يدرسها في مستقبله الدراسي، وعشقه للشعر مما خلق هذا الميل الكبير إلى دراسة اللغة العربية، وتخرج في جامعة ميدوغري سنة ٢٠١٦م.

بدأ يوسف قيس يتطلع إلى قول الشعر منذ أن كان في الصف الثالث الإعدادي إلا أن عدم وجود شاعر عربي يذكر في مجتمعه حال بينه وبين تحقيق أحلامه في تلك الآونة، فلم يكتب بيت شعر إلا في سنته الأخيرة في الثانوية، حيث كتب قصيدة يمدح فيها معلميه ويودع زملاءه في مدرسته الثانوية؛ ثم إنه لم يكتب شيئا من الشعر بعد ذلك إلى أن التحق بالجامعة فقال بعض القصائد، خصوصا في سنته الثالثة في الجامعة حيث كان في قرية اللغة العربية، وذلك في مدح بعض المحاضرين في قرية اللغة العربية، وقد جمع أشعارا قالها خلال إقامته في القرية أسماها "قيسيات قرية اللغة العربية".

وفي السنة الرابعة من الجامعة قال قصائد تشبب فيها بفتاة اسمها (حفصة عيسى محمد)؛ أما معظم قصائده فقد قالها بعد تخرجه في الجامعة. ويوسف قيس يميل كل الميل في قصائده إلى موضوعات غزلية.. وقلما قال شعرا في غيرها.

إنتاجاته:

نظم الشاعر قصائد عديدة، وقد اشتملت هذه القصائد على شتى العلوم والفنون. ومن أشهر إنتاجاته الشعرية: القصيدة المسماة بـ "تنام غزال في أبوجا" من غيري في الرجال له مثل حفصة" "دع يا عدول ملامتي في حفصة" "دالية في مدح الدكتور محمد عثمان" وغيرها. عرض القصيدة:

وعما صباحاً في النسائم واسلما

يا صاحبي رحلي السلام عليكم

وتحتل عني رسالة مادح
ولشعره حلو المذاق ورونق
لمحمد زين الدكاتر والأستاذ
ذاك الذي عرف الأعجام فضله
ذاك الذي ورث المكارم عن أبي
ذاك الذي زار النبي محمدا
ذاك الذي ركعت له العربية
الحاذق الفطن اللبيب أبا الذكا
القانت الورع التقى لربه
لزم العفاف فلم يحل إزاره
وهو الصدوق فلم يبع بلسانه
شهدت له الأجيال طراً أنه
خدن السماحة والسخاء سجية
مأوي الفقير متى ركبت لقصده
أكرم بدكتور إذا أغضبته
إن يحسدوك فلن يكونوا مثلك
ما زادك الواشون إلا رفعة
وإذا أراد الله نشر فضائل
يا ذا العطاء وذا المحاسن والندى
والله يجزيك الجنان وحوورها
فتكون جارا للنبي محمد
صلى عليه الله ما شمس بدت

عرف القصائد عن أبي وتعلما
وجزالة أكرم به متكلمنا
تذ من علا أفاقاً وفاق الأنجما
والعرب تعرفه وأرض والسما
وأبي أبيه فكان فهمهم أكرما
وأتى كدأء والحطيم وزمما
وتكلمت بلسانه وتكلمنا
ء اللوزعي الألمي الأحكما
الراكع السجد الولي الأعلما
لفواحش اللذات حتى يندما
كذباً ولم يفتح لمرولة فما
منذ البلوغ مؤدب بل قبلما
فإذا أتاه السائلون تبسما
أعطاك ما ملكت يدها تكرما
وجهلت كان الحلم عنه مترجما
فلقد هداك الله _ كنت مقدما
فهم الألى جعلوا لمجدك سلما
جهلت أتاح لها الحسود لتعلما
إني مدحت علاكم لأكرما
ويقيك يوم الروع نار جهنم
خير البرية من أنار يلملما
وتعاقب الليل النهار وسلما

بناء القصيدة:

تناول الباحث في هذه المقالة دراسة النقاط الآتية:

أ/ بناء القصيدة / العاطفة. / الأسلوب والصور البلاغية / الموسيقى (الأوزان - القوافي).
يبني الشعراء القدماء قصائدهم على نمط معروف لديهم فكانوا يفتتحونها بالنسيب والغزل أو بذكر الديار والبكاء على الأطلال، وقد ينتقل الشاعر بعدها إلى وصف الناقة أو الإبل أو الفرس ويتوقف أحيانا لذكر المشاهد التي شاهدها، ثم يتخلص بعد هذا إلى الغرض الأساسي الذي يرمي إليه ويقصده في إنشائه لهذه القصيدة ويعتبر كل ما سبق مقدمة للغرض الأساسي من القصيدة على نحو ما يُرى في قصائد الشعر العمودي وبالأخص المختارات من الشعر الجاهلي، كالمعلقات وغيرها، وقد امتد هذا الأسلوب إلى ما بعد العصر الجاهلي عند بعض الشعراء بل وإلى ما بعد العصور المتتالية تأثرا بمنهج القدماء كما نشاهده اليوم في أشعار بعض علمائنا في هذه المنطقة من الذين عاشوا في القرن التاسع عشر الميلادي، وما بعده كالكانمي في قصيدته "نسيم الصبا" وعبدالله بن فودي في بعض أشعاره وغيرها من علماء المنطقة (١) فماذا ينبغي أن يكون عليه مبنى القصيدة كما يراه نقاد العرب؟ وماذا يكون نصيب الشاعر يوسف زكريا عبدالله المعروف بـ "قيس" في هذه القصيدة المدروسة؟ والإجابة تكون ضمن مناقشة المسائل التالية:

أ) مطالع القصائد:

اعتنى علماء النقد غاية الاعتناء بما ينبغي أن يكون عليه مطلع القصائد الشعرية إيماناً منهم بائتلاف معاني الشعر ببيانه وارتباط أجزائه، فما المقصود بمطلع القصيدة؟
مطلع القصيدة هو أن يجعل مطلع الكلام من الشعر أو الرسائل دالاً على المعنى المقصود من ذلك الكلام: إن كان فتحاً ففتحاً، وإن كان هناءً فهناءً، أو كان عزاءً فعزاءً، وكذلك يجري الحكم في غير ذلك من المعاني. وفائدته أن يعرف من مبدأ الكلام ما المراد به ولم هذا النوع (٢)
وقد يمثل للمطالع الجيدة بمطلع أبي تمام في قصيدته عن فتح العمورية، يقول في هذا المطلع:-
السيف أصدق أنباء من الكتب** في حده الحد بين الجد واللعب

فقد لخص مضمون القصيدة في هذا المطلع والإبتداء الجيد وأطلعنا في أول وهلة على أن قصيدته حربية، وأطلعنا أيضا بإيجاز شديد على قصة هذه الحرب التي لعب فيها المنجمون دورا سلبيا في تنبئهم بعدم فتح تلك المدينة وعدم نصر المعتصم بالله، فقد تم فتحها وانتصر المعتصم بفتحها بحد سيفه انتصارا فضح المنجمين وجعل حد السيف أصدق مما يجدونه في كتبهم من الأنباء الكاذبة. فمثل هذا المطلع من القصيدة يشدك ويشوقك إلى متابعة الأبيات الآتية.

ونعود الآن إلى مطلع قصيدة الشاعر المتناولة بالدراسة فنقول: إن الدراسة الدقيقة في أن نضع مطلع القصيدة نصب أعيننا فيظهر بوضوح أن الشاعر قد أحسن الافتتاح وأجاده، إذ باشر الشاعر الافتتاح بالتحية دون ذكر البسمة والحمدلة والصلعمة، ولعل ذلك عائد إلى حرارة إحساسه بالغرض الرئيسي وهو المدح، حيث يقول الشاعر:

يا صاحبي رحلي السلام عليكما	وعما صباحاً في النسائم واسلما
وتحملا مني رسالة مادح	عرف القصائد عن أب وتعلما
ولشعره حلو المذاق ورونق	وجزالة أكرم به متكلما!

فمثل هذا المطلع بمجرد سماعه يلقي في الروع أن القصيدة تحتوي على معان تمت إلى المدح بصلة. وإضافة إلى ذلك إن المطلع ملائم للمضمون وموح لما يستقبل من المعاني، فعلى هذا نحكم للقصيدة بأنها حظيت بما يسمى ببراعة الاستهلال أو حسن الإبتداء على حد تعبير النقاد. والجدير بالذكر في هذا الصدد، هو أن الشاعر يوسف زكريا في هذه القصيدة لم يتأثر بالافتتاح النسيبي ولعل ذلك يرجع إلى السبب بأن القصيدة لا تحتاج إلى مثل هذا الافتتاح.

ب) حسن التخلص في القصيدة:

يأتي بعد المطلع في البنية الشعرية التخلص، وهو الذي يحتوي على هيكل القصيدة ومضمونها، وصورته على حد ابن الأثير هي: "أن يأخذ مؤلف الكلام في معنى من المعاني، فيبينما

هو فيه إذ أخذ في معنى آخر غيره، وجعل الأول سببا إليه- فيكون بعضه أخذا بقراب بعض من غير أن يقطع كلامه، ويستأنف كلاما آخر، بل يكون جميع كلامه كأنما أفرغ إفراما... (٣)
فِيُفْهِمُ مِنْ هَذِهِ الْعِبَارَةِ أَنَّ التَّخْلُصَ يَتِمُّ فِي الْخُرُوجِ مِنْ مَعْنَى إِلَى مَعْنَى بِإِيجَادِ رِبْطٍ وَثِيقٍ بَيْنَ الْمَعْنَى السَّابِقِ وَاللَّاحِقِ، بِحَيْثُ يَكُونُ السَّابِقُ سَبَبًا إِلَى اللَّاحِقِ، وَأَنَّهُ يَحْتَاجُ فِي تَمَثِيلِهِ إِلَى نَوْعٍ مِنَ الْإِحْكَامِ وَالْإِتْقَانِ بِحَيْثُ يَكُونُ الْخُرُوجُ مِنْ مَعْنَى إِلَى آخَرَ مِنْ غَيْرِ قَطْعِ الْكَلَامِ وَاسْتِنَافِ كَلَامٍ آخَرَ، بَلْ يَكُونُ الْكَلَامُ مَوْصُولًا مَعَ تَوْفُرِ رِبْطٍ دَاخِلِيٍّ وَثِيقٍ بَيْنَ مَعَانِيهِ.
وَالْقَصِيدَةُ الَّتِي نَحْنُ بِصَدْدِهَا تَتَسَمَّى بِمَا يَسْمَى حَسَنَ التَّخْلُصِ، وَذَلِكَ لِأَنَّ الشَّاعِرَ شَرَعَ

بِالْمَوْضُوعِ مَبَاشِرَةً وَهُوَ الْمَدْحُ حَيْثُ يَقُولُ:

لمحمد زين الدكاتر والأسا
ذاك الذي عرف الأعاجم فضله
تذ من علا أفقاً وفاق الأنجما
والعرب تعرفه وأرض والسما

وبذلك خرج إلى الغرض الأساسي المسوق إليه وهو المدح حيث يقول:

ذاك الذي ورث المكارم من أب
ذاك الذي زار النبي محمد
ذاك الذي ركعت له العربية
الحاذق الفطن اللبيب أبا الذكا
القانت الورع التقي لربه
وأبي أبيه فكان فيهم أكرم
وأتى كداءً والحليم وزمزم
وتكلمت بلسانه فتكلما
ء اللوزعي الألمي الأحكما
الراكع السجّد الولي الأعلمما

ج) حسن المقطع في القصائد:

إذا كان المطلع مفتاح الشعر ومدخله، كان من الأجدر أن تكون الخاتمة قفله ومسدّه، لأنها اللبنة الأخيرة التي يضعها الشاعر في بناء القصيدة، فينبغي للشاعر أن يحسنها ويجودها، لأن الخاتمة أبقى في السمع، وألصق بالنفس لقرب العهد بها، فإن حسنت حسن الكلام وإن قبحت قبح الكلام، والأعمال بخواتيمها كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم. (٥)
وقد أشار النقاد إلى إحكامها وتجويد السبك فيها لكونها قاعدة القصيدة وآخر ما يبقى منها في الأسماع، فلا يستحسن الزيادة عليها كما لا يستحسن أن يأتي الشاعر بعدها بأحسن منها.

ويذكر ابن رشيقي " أن الحدّاق من الشعراء قد كرهوا ختم القصيدة بالدعاء لأن ذلك من عمل أهل الضعف إلا للملوك، فإنهم يشتهون ذلك". (٦) فأرى إن كانوا يجوزون ذلك في مدح الملوك، فمدح العلماء والشيوخ أولى بهذا النوع من الخاتمة لما فيها من المعاني الروحية التي تصور شدة تعلق الشعراء الصوفيين بشخصية شيوخهم الجليلة. وإضافة إلى ذلك، يقول النويري في تعريفه لحسن المقطع:

فهو أن يكون آخر الكلام الذي يقف عليه المترسل أو الخطيب أو الشاعر مستعذبا حسنا لتبقى لذته في الأسماع، كقول أبي تمام:

أبقت بني الأصفر المصفر كاسمهم ** صفر الوجوه وجلت أوجه العرب

وكقول المتنبي:

وأعطيت الذي لم يعط خلق ** عليك صلاة ربك والسلام (٧)

إذن حسن المقطع وجودته هو مراعاة حسن آخر البيت أو القصيدة ولم يكن أقل شأنًا من مراعاة جودة الابتداء في القصيدة، ولذلك اهتم البلغاء أن ينهوا كلامهم بأبلغ لفظ وأجمل معنى، واهتموا بأن يكون آخر بيت في القصيدة أجود بيت فيها.

لقد امتازت القصيدة "الميمية بمدح الدكتور محمد صالح جمال" فقد ختمها الناظم بمعان لها أثر في النفس وبقاء في السمع وبهذا حظيت القصيدة بحسن الختام. وقد انتهت القصيدة بالمقطع الآتي:

جهلت أتاح لها الحسود لتعلما
إني مدحت علاكم لأكرما
ويقيك يوم الروع نار جهنما
خير البرية من أنار يللمما
وتعاقب الليل النهار وسلمما

وإذا أراد الله نشر فضائل
يا ذا العطاء وذا المحاسن والندی
والله يجريك الجنان وحوورها
فتكون جار للنبي محمد
صلى عليه الله ما شمس بدت

د/ العاطفة الشعرية:

العاطفة في اللغة من عطف يعطف وعطف، العين والطاء والفاء من أصل واحد صحيح على الثناء، يقال عطفت الشيء إذا أملتة والوسادة: ثناها كعطفها ومصدره العطوف وتعطف: (٨) بالرحمة عطت عليه أي أشفقت عليه، ومنه قول الشاعر:
العاطفون تحيل مامن عاطف والمعطفون زمان ما من مطعم (٩)

وتأتي الكلمة بمعنى مال، تقول مال عليه أي أشفق كتعطف، كما تأتي بمعنى حمل وكر عليه ومنعطف الوادي: منحناه وتعاطفوا: عطف بعضهم على بعض. وتعطف به: ارتدى كاعتطف ويتعاطف في مشيته إذا حرك رأسه وتهادى أو تبحر. (١٠) ومنه قول مزاحم العقيلي، أنشده ابن الأعرابي:

وَجَدِي بِهَا وَجَدَ الْمُضِلَّ فُلُوصَهُ بِنَخْلَةٍ لَمْ تَعُطِفْ عَلَيْهِ الْعَوَاطِفُ (١١)

من ذلك يدرك أن العاطفة في اللغة تأتي لمعان عدة منها: الميل والثناء، والرحمة والشفقة، المنحني من الوادي، كارتداء، حسن الخلق.

أما عند أهل الفن فقد عرفها ابن رشيق بأنها تلك الدواعي والبواعث التي تدفع الشاعر إلى التعبير عما يختلج في صدره من طرب وطمح وغضب وشوق ووقاء وغيرها (١٢)، ويرى الدكتور أحمد بدوي أنها "قواعد الشعر والأسس والينابيع التي يتفجر منها الشعر" (١٣) وعرفها الدكتور أحمد الشايب: "إنها تعني دراسة وبيان المقاييس النقدية" (١٤) وكما عرفها شوقي ضيف بأنها الحالة الوجدانية التي يشترك الناس فيها جميعاً فيما يسمونه حزناً أو فرحاً أو حَجَلًا وما إلى ذلك. (١٥)

والعاطفة عنصر هام في الدراسة التحليلية للعمل الأدبي. فيها يحسن القارئ من الأديب قوة شعوره ومحاولته في نقل انفعالاته إلى سامعيه. فكلمة "العاطفة" كنقطة من نقاط الدراسة التحليلية، كلمة جديدة ولم يرد اسمها في الدراسات التحليلية القديمة. ويقول أحمد أمين: "فأنت تقرأ طبقات الشعر لابن قتيبة مثلاً فتجد فيه: قول الشعر للرغبة أو الرهبة. ولكن لا تجد فيه كلمة العاطفة لأنها لم تختراع إلا في العصر الحديث." (١٦)

إن العاطفة عنصر من عناصر الأثر الأدبي، الذي يتكون من عناصر أربعة هي: الفكرة، والعبارة، والعاطفة، والخيال، على النحو الذي يحدد فيه في النقد الحديث معالم الصور الأدبية. ويقصد بالعاطفة الحالة الوجدانية والنفسية التي تسيطر على الأديب إزاء موضوع أو فكرة أو مشاهدة، وتؤثر فيه تأثيراً قوياً يدفعه إلى التعبير عن مشاعره، والإعراب عمّا يجول بخاطره. ومقياس هذه العاطفة يرجع إلى القارئ المتذوق الذي ينقل إليه تأثير هذه العاطفة الكامنة في العمل الأدبي، وعلى قدر هذا التأثير يكون الحكم على العاطفة من حيث الثبات أو التحول، والقوة أو الضعف، والصدق أو الزيف، والسمو أو الهبوط، وهي الأمور التي جعلها النقد الحديث مقاييس للعاطفة الأدبية(١٧).

هذا والعاطفة قد تكون صادقة مقبولة، وذلك إن طبقت مشاعر الأديب لما هو عليه من عقيدة وذوق وتجربة، وإلا فزعم باطل مرفوض في الدائرة الأدبية. فالصدق المتطلب هو مطابقة القول لعقيدة الأديب وذوقه فقط، ولو خالف لواقع الحال.

لقد تحدث الأستاذ المرحوم علي نائي سويد عن عنصر الصدق في العمل الأدبي فقال متسائلاً: " إذا نظم الشاعر قصيدة يدعي فيها أنه أحب أو أبغض، فرح أو حزن، ضحك أو بكى، فإن أول سؤال يجب أن نسأله حين نقرأ قصيدته هو: هل شعر حقاً بهذا الشعور الذي يدعيه؟ أو انفعّل بذلك الانفعال الذي يزعمه؟ وهل مرّ حقاً بتلك التجربة التي يحاول نقلها إلينا؟ وعلى الإجابة عن هذا السؤال الأول، يتوقف قبولنا المبدئي لقصيدته، واستمرارنا في تقديرها، ورفضنا لها منذ البدء وإبائنا أن ندخلها في دائرة الأدب الصادق.(١٨)

وإذا تحول القارئ إلى قصيدة شاعرنا المتناولة يجدها قد امتازت بصدق العاطفة وحرارة الشعور والإحساس، فهي ليست إلا تعبيراً صادقاً عن عواطفه وعمّا يختلج في قلبه من المشاعر والأحاسيس نحو ممدوحه، فتأمل الأبيات الآتية:

لحمد زين الدكاتر والأسما
تذ من علا أفقاً وفاق الأنجما
ذاك الذي عرف الأعاجم فضله
والعرب تعرفه وأرض والسما
وقوله أيضاً

ذاك الذي ورث المكارم من أب
ذاك الذي زار النبي محمد
ذاك الذي ركعت له العربية
الحاذق الفطن اللبيب أبا الذكا
القانت الورع التقى لربه
وأبي أبيه فكان فهمم أكرم
وأتى كداءً والحليم وزمزم
وتكلمت بلسانه فتكلما
ء أَلَلْوَزَعِي الألمعي الأحكما
الراكع السَّجِدُ الولي الأعلما

إذا تأملنا القصيدة نلاحظ أنها أيضاً امتازت بصدق العاطفة وحرارة الشعور والإحساس، فهي ليست إلا تعبيراً صادقاً عن عواطفه وعمما يختلج في قلبه من المشاعر والأحاسيس، فجاءت بتعبير صادق لعواطف الشاعر وما يكن في قلبه من مشاعر وأحاسيس نحو ممدوحه
هـ/ الألفاظ والتراكيب:

إن ألفاظ وتراكيب قصائد الشاعر يوسف زكريا عبد الله المتناولة بالدراسة تمتاز بالسهولة واللين، وقد يرجع ذلك إلى طبيعة الموضوع الرئيسي للقصائد، فتأمل الأبيات الميمية في مدح الدكتور محمد صالح جمال. تلاحظ فيها السهولة واللين والرقّة، أما من حيث السلامة والصحة اللغوية، فإن ألفاظ القصيدة وتعابيرها عموماً تمتاز بالصحة والخضوع للقواعد اللغوية وذلك يعود إلى باع الشاعر في اللغة العربية وعلومها.
أما إذا وضع القارئ ألفاظ وتراكيب القصيدة يلاحظ أنه نظراً لأن الموضوع الرئيسي فيها هو المدح، فقد اختار الشاعر ألفاظاً وتراكيب رقيقة بعيدة عن التكلف والغموض وهي مناسبة للغرض، فتأمل الأبيات الآتية لتشهد على صحة ما قلناه.

لحمد زين الدكاتر والأسا
ذاك الذي عرف الأعاجم فضله
ذاك الذي ورث المكارم من أب
ذاك الذي زار النبي محمد
ذاك الذي ركعت له العربية
الحاذق الفطن اللبيب أبا الذكا
تذ من علا أفقاً وفاق الأنجما
والعرب تعرفه وأرض والسما
وأبي أبيه فكان فهمم أكرم
وأتى كداءً والحليم وزمزم
وتكلمت بلسانه فتكلما
ء أَلَلْوَزَعِي الألمعي الأحكما

القنات الورع التقي لربه الراكع السجد الولي الأعلم

إن الموضوع الذي تناوله الشاعر هو المدح فلماذا احتاج إلى استخدام ألفاظ سهلة تمتاز بالرقعة واللين في مثل قوله:(الحاذق) (الليبيب) (اللوزعي) (القنات) (التقي) (الورع) (الولي) كلها كلمات متداولة بين المسلمين ولاسيما المثقفين بالثقافة العربية والإسلامية. ومما يدل على أن الشاعر وفق لإختيار الكلمات المألوفة البعيدة عن الغرابة والغموض، هو تجنبه للألفاظ التي تثقل على اللسان ويشق النطق بها. فجاءت ألفاظ القصيدة واضحة سهلة خفيفة على اللسان تكسوها اللطافة واللباقة. و/الصور البلاغية:

لقد تناولت قصيدة الشاعر كنوزاً إضافية من الصور البلاغية التي استعان بها في خلق جماليات سامية وزان بها عمله الفني. وليس في إمكان الباحث استقصاء كل ما أودعه الشاعر من البلاغيات في شعره لكثرتها ووفرته، ولأن موضوع الباحث ليس دراسة بلاغية استقصائية لأشعار الشاعر. ومهما يكن من أمر فإن الباحث سيورد بعضها ويستقرها ويحللها حسب استخدامها السياقي في أشعاره. الصور البيانية:

ومن الملامح البيانية المستخدمة في شعره التشبيه:

وقد استعمل الشاعر يوسف زكريا هذه الصورة البلاغية لتجلية المعاني، ولزيادة الإيضاح ولأغراض بيانية أخرى في شعره. ومن نماذج ذلك قوله:

أكرم بدكتور إذا أغضبتة وجهلت كان الحلم عنه مترجما

.... كان الحلم عنه مترجما: أي كان الحلم موضحا عنه ومبينا.

أقام الحلم بين ممدوحه والجاهل عليه كمن يقوم بين المتكلم والمتلقي ليوضح لهذا مقاصد هذا. شبه الشاعر الحلم بالإنسان تشبيهاً بليغاً: الحلم مشبه، والمترجم مشبه به، ووجه الشبه وأداة التشبيه محذوفان.

وقوله:

ما زادك الواشون إلا رفعة فهم الألى جعلوا لمجدك سلماً

.... جعلوا لمجدك سلماً: أي جعلوا كسلم. شبه حاسديه والواشين به بالسلم يرتقي بهم إلى مراده، كما ترتقي المرء بالسلم إلى مراده من علو. فتشبيهم بالسلم تشبيه بليغ. وقوله:

ولشعره حلو المذاق ورونق
ولشعره حلو المذاق: شبه كلمات شعره ومعانيها وسهولتها وحسن وقعها على الأسماع بالعسل وحلوه على اللسان، فكان الشعر مشبهاً، والعسل مشبهاً به، إلا أنه المشبه به (العسل) ورمز له بشيء من لوازمه (حلو المذاق) على سبيل الاستعارة المكنية. وقوله:

خدن السماحة والسخاء سخيُّه
فإذا أتاه السائلون تبسماً

خدن السماحة: جعل من السماحة صديقاً لممدوحه، وترفع في التعبير من أن يقول "ملازم للسماحة" فقال: "خدن..." ليجعله والسماحة صديقان حميمان. والتعبير عن الملازمة بالخدن استعارة تصريحية. وقوله:

فتكون جاراً للنبي محمدي
خير البرية من أنار يللمما
.... أنار يللمما: يعني علم وهدى يللم من ظلمات الجهل والضلال إلى نور العلم والهدى. شبه العلم والهدى بالنور، واشتق من النور (أنار) على سبيل الاستعارة التصريحية. الصور المعنوية:

وقد استعمل الشاعر أسلوب النداء في شعره ومن أمثلة ذلك:

يا صاحبي رحلي السلام عليكم
وعما صباحاً في النسائم واسلما
ياذا العطاء وذا المحاسن والندى
إني مدحت علاكم لأكراما

يدرك القارئ في الأبيات السابقة أن الشاعر استخدم إحدى أدوات النداء وهي "يا" لنداء البعيد، وذلك لسبب والسبب هو أن المنادى "الله" جليل القدر والشأن خطير الشأن، فكأن بُعد درجته في العظم بعد بُعد في المسافة. ولذلك اختار الشاعر في ندائه الحرف الموضوع لنداء البعيد ليشير إلى هذا الشأن الرفيع.

الصور البديعية.

وقد عمل الشاعر إلى استخدام عديد من الصور البديعية في شعره تطريزا لديباج الجمال المعنوي، وتنميكا للزخرفة اللفظية للأفكار النيرة. وقارئ شعر يوسف زكريا يدرك أنه ليس من الشعراء الذين يتكلفون استعمال تلك الصور، ولا من الذين يتصيدون زخرفة اللفظ على حساب المعنى. بل كان شاعرنا يقتصد في ذلك، إذ كانت تلك المحسنات المعنوية واللفظية تأتيه عفوا الخاطر، مستخدمة في مقاماتها التي تتلائم معها. وهذا هو السر وراء قلة ورود بعض البديعيات في شعره. ومن الصور البديعية ما يلي:

ذاك الذي عرف الأعاجم فضله والعرب تعرفه وأرض والسما
طابق الشاعر في البيت الواحد بين (الأعاجم - العرب) وبين (أرض - سما)

ز/ الموسيقى الشعرية (الأوزان- القوافي):

لعل أوضح ما في الشعر من خصائص ومميزات هو تلك الموسيقى المنسابة من مقاطعه الذي يسمى (بالوزن) والإيقاع المتكرر في آخر كل بيت من الأبيات المسي (بالقافية)، لذلك عرف النقاد قديما الشعر بأنه "قول موزون مقفى يدل على معنى". فنفهم من هذه العبارة أن الوزن والقافية يمثلان ركنا أساسيا في البناء الشعري. (٢٣)

وظل الشعر العربي يحتفظ بوحدته الموسيقية في هذا الوزن والقافية منذ القديم، كما ظل الشعراء يصوغون على منوال هذا النظام الموسيقى الدقيق الكامن في أشعار القدماء بطبعهم وقرائحهم إلى أن اكتشف الخليل بن أحمد هذه الأوزان الشعرية التي سماها "البحور" في القرن الثاني الهجري، لأول مرة استقراءً من أشعار العرب، كما اردف هذا المجهود بوضع علم القوافي الذي به تتم عناصر الموسيقى الشعرية. (٢٤)

الأوزان:

فهذه الأوزان ما هي إلا عبارة عن مجموعة من القوالب الموسيقية التي يتألف كل واحد منها من مجموعة من النغمات التي سماها العروضيون "بالتفعيلة" وهي تتكرر في كل بيت من الأبيات بطريقة منتظمة، وتتم على إيقاع متكرر في آخر البيت الذي يتمثل في القافية. ومنذ اكتشاف هذه الأوزان راح الشعراء يصوغون أشعارهم في قوالب هذه الأوزان، كما سار على هذا الدرب شعراؤنا وأدباؤنا المحليون، إذ أخذوا- في ضمن نشاطاتهم الثقافية - ينظمون أشعارهم على منوال هذه الأوزان اقتداءاً بالعرب وامتداداً للثقافة العربية ومنها صياغة الشعر في مختلف بلادهم.

والمتصفح لإنتاجات الشاعر يوسف زكريا الشعرية، يرى أن صياغته الشعرية خاضعة لهذا النظام المتوارث، وذلك لتأثره بالثقافة العربية التي عاش في ظلها طول حياته، ويتبين عند استقراء القصيدة المختارة، إن البحر الذي استخدمه شاعرنا هو بحر: (البسيط) لقد تناول الشاعر هذا البحر في القصيدة المتناولة بالدراسة، فعلى هذا البحر صاغ القصيدة. وأجزاؤه ثمانية:

مستفعلن فاعلن مستفعلن فاعلن مستفعلن فاعلن مستفعلن فاعلن

ولينظر القارئ الآن إلى مدى مراعاة شاعرنا لموسيقى هذا البحر.

قال في مطلع القصيدة

يا صاحبي رحلي السلام عليكما وعما صباحاً في النسائم واسلما

تقطيع البيت:

يا صاحبي / رحلسلا/ معليكما ** وعما صبا/ حنفننسا/ ثموسلما

./ ./

متفاعلن/ متفاعلن/ متفاعلن متفاعلن/ متفاعلن/ متفاعلن

مضممر/ مضممر/ صحيح سالم/ مضممر/ صحيح

القوافي:

إن للقوافي أهمية لا تقل عن أهمية الأوزان في البناء الشعري، إذ أنها شريكة الأوزان في تكوين الوحدة الموسيقية فيه. ولذلك عني بها النقاد عناية فائقة بجانب عنايتهم بالأوزان. وليست القافية إلا عدة أصوات تتكرر في أواخر الأسطر أو الأبيات من القصيدة، وتكررها هذا يكون جزء هاماً من الموسيقى الشعرية، فهي بمثابة الفواصل الموسيقية يتوقع السامع تردها، ويستمتع بمثل هذا التردد الذي يطرق الأذان في فترات زمنية منتظمة، وبعد عدد معين من مقاطع ذات نظام خاص يسمى الوزن. (٢٥)

الروي:

إن القارئ للقصيدة يجد أن القافية التي استخدمها شاعرنا جاءت ملائمة للأفكاره وعاطفته بحيث يحس ملاءمة وانسجاماً مع المعاني والعواطف. حيث يقول:

يا صاحبي رحلي السلام عليكما وعما صباحاً في النسائم واسلما
وتحملا مني رسالة مادح عرف القصائد عن أب وتعلما
ولشعره حلو المذاق ورونق وجزالة أكرم به متكلما!

إن القارئ لهذه الأبيات قد يحس بنوع من الانسجام بين تتابع هذه الميمات في أواخر الأبيات، ويبين مدح الشاعر، ثم تأمل استخدامه للفتح مجرى للروي "الألف" إضافة إلى ما يحسه في استعمال الميم في ألفاظ المدح مما يشير إلى عظمة الممدوح وعلو مكانه.

الخاتمة:

الحمد لله بدءاً وختماً، ويتضح مما سبق عرضه، أن الشاعر يوسف زكريا عبدالله المعروف بـ "قيس" من أشهر الشعراء البرنأويين الذين ساهموا ومازالوا يساهمون في مجال قرض الشعر العربي في نيجيريا عامة وبرنو خاصة. وإن لإنتاج الشاعر يوسف عبد الله الشعرية دوراً كبيراً في نشر الثقافة العربية وتطورها في منطقة برنو.

تعرض الباحثون في هذه المقالة إلى مناقشة قصيدة الشاعر يوسف زكريا عبدالله المعروف بـ "قيس" في مدح الدكتور محمد صالح جمال. وقد اتضح للباحثون أن القصيدة المتناولة بالدراسة من البحر البسيط.

فمن دراسة بناء القصائد وصل الباحثون بأن الشاعر يوسف زكريا لم يبن قصائده على النمط المعروف لدى الشعراء القدماء، إذ لم يفتح أياً من قصائده بالنسيب والغزل أو بذكر الديار والبكاء على الأطلال، وخلاصة القول إنه لم يتأثر بالافتتاح النسيبي في القصيدة، وأما فيما يخص المطلع لم يفتح قصائده بالصلصلة والتسليم على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأنه يدخل في الموضوع مباشرة، وبمجرد سماعك للمطلع أو قراءتك له يلقي في الروع على أن القصيدة تمت إلى المدح أو الفخر أو الاستغاثة.

وأما عن حسن التخلص، في القصيدة المدروسة فإن الشاعر استعملها بالتحية، فلما أراد الخروج والتخلص إلى الغرض الأساسي المسوق إليه من القصائد، أحكم وأتقن ذلك بإيجاد ربط وثيق بين المعنى السابق واللاحق. وأما حسن المقطع في القصائد المتناولة بالدراسة، فامتازت القصائد بحسن المقاطع، وذلك لأن آخر الكلام الذي وقف عليه الناظم مستعذباً حسناً وأبقى لذة في الأسماع بأبلغ لفظ وأجمل معنى، وكيف لا، وكان آخر كلامه دعاء وصلابة على النبي (ص).
وأما عن العاطفة والأسلوب والصور والموسيقى فقد أحسن الشاعر وأجاد في القصيدة يث أنها جميعاً كانت في صورة قيمة توجي إلى تمكن الشاعر في الصناعة الشعرية.

قائمة الهوامش والمراجع:

- ١- كيارى إبراهيم الشريف (الدكتور): البردة الجيمية للشيخ يوسف بن عبد القادر القرقرى، تحقيق ودراسة أدبية، رسالة دكتوراه في الدراسات العربية، جامعة بايرو قسم اللغة العربية، أغسطس، ٢٠٠١، ص: ٤٥٠.
- ٢- ابن الأثير ضياء الدين محمد بن محمد: المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ج ٢ المكتبة العصرية صيدا- بيروت، ١٤١١هـ- ١٩٩٠م ص ٢٢٣.
- ٣- ابن الأثير، ضياء الدين محمد بن محمد، المرجع السابق، ص: ٢٤٤.
- ٤- ابن الأثير، ضياء الدين محمد بن محمد، المرجع السابق، ص: ٢٦٠.

- ٥- ابن رشيق القيرواني: العمدة في محاسن الشعر وأدابه ونقده، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، المجلد الأول، الطبعة الخامسة، دار الجيل- بيروت - ١٤٠١هـ / ١٩٨١م ص-٢١٧.
- ٦- المرجع السابق، ص: ٢٤١.
- ٧- النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب ، نهاية الإرب في فنون الأدب ، ج٧ وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، القاهرة المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر ص: ١٣٥.
- ٨- أبو الحسن أحمد بن فارس ، مقاييس اللغة، ط: دار الحديث القاهرة، ١٤٢٩هـ، ص: ٦٨٤.
- ٩- الجوهري، إسماعيل بن حماد، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، دار العلم للملايين بيروت، ط: ٤، يناير ١٩٩٠ ص ٧٨٤
- ١٠- الفيروزآبادي، القاموس المحيط، دار الكتب العلمية بيروت، ج ٣، ص: ٢٠٢.
- ١١- لجوهري، إسماعيل بن حماد، المرجع السابق، ص ١٦٩
- ١٢- القيرواني، ابن رشيق، المرجع السابق، ص: ٧٧.
- ١٣- بدوي، أحمد أحمد، (الدكتور): أسس النقد الأدبي عند العرب، دار النهضة مصر، دت، ص: ٥٠٤.
- ١٤- أحمد الشايب، أصول النقد، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٩٤، ص: ١١٠.
- ١٥- شوقي ضيف، (الدكتور): في الأدب والنقد، طبعة دار المعارف، الطبعة التاسعة، ١٩٩٩، ص: ١٣.
- ١٦- أحمد أمين: النقد الأدبي، مكتبة النهضة العربية، ط ٤، ١٩٧٢، ص: ٢٢.
- ١٧- أبو كريشة، طه مصطفى (الدكتور): في النقد العربي الحديث تاريخه وقضاياها، (دت)، ص: ١٧٠-١٧١.
- ١٨- الأستاذ علي نائبي سويد: كيف نتذوق الأدب العربي، دار الأمة، DarulUmma for Islamic Publishers, Agency, Kano-City-Nigeria ص: ٢٧.
- ١٩- بن رشيق القيرواني، العمدة في محاسن الشعر وأدابه ونقده، دط، المتبة العصرية، بيروت، ٢٠٠٤م، ج ١ ص ٢٥٢.
- ٢٠- الخطيب القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة، تحقيق محمد عبد القدر الفاضلي، دط، المكتبة العصرية، بيروت، ٢٠٠٤، ص ٢٠٩.
- ٢١- ابن رشيق، المرجع السابق، الصفحة نفسها.
- ٢٢- القزويني: الإيضاح ص ١٠٦.
- ٢٣- الهاشمي، المرجع السابق، ص: ٨٨.

- ٢٤- الهاشحي، المرجع السابق، ٧٧.
- ٢٥- المرجع السابق، ص: ١٥.
- ٢٦- تكميلية قدمت لقسم اللغة العربية، جامعة بايرو كنو، للحصول على درجة الماجستير في اللغة العربية وأدائها، يونيو ١٩٩٣م، ص: ١٧٢